

اللغة الشعرية وتسريد الشعر

عمارة بوجمعة،

أستاذ محاضر، (أ)

جامعة سيدي بلعباس

تعد مسألة تداخل الأجناس الأدبية وتفاعلها من القضايا النقدية الشائكة التي اهتم بها النقاد والفلاسفة، فقد نالت هذه المسألة اهتماما معرفيا كبيرا من قبل النظرية الأدبية والبلاغية ونظريات الفن والجمال. وظل السؤال الجامع بين هذه المباحث كامن في الكشف عن السمات المشتركة بين الأنواع الأدبية والفنية وفي تحديد آليات التفاعل بينها، وقد كانت الصلة بين الشعر والسرد هي أبرز القضايا التي اهتمت بها الشعرية الحديثة نظرا لتطور مفهوم الشعر واتساع مجالات السرد في الخطابات الأدبية والفنية المعاصرة.

خضعت علاقة الشعر بالسرد للتحويلات الفنية التي شهدتها تطور النظرية الأدبية عند الغرب، فقد كانت هذه التحويلات حاسمة في إعادة ترتيب نظام الأجناس الأدبية وإرساء تصورات جديدة حول مفهوم الشعر وصلته بالأجناس الفنية الأخرى. ولم تكن هذه التصورات تحدث خارج سياق المعرفة الجمالية المعاصرة التي أصبح معها تحديد الجنس الأدبي بحدود مرسومة موضع شك كبير، مما جعل رينيه ويلك يؤكد "إن التمييز بين الأنواع الأدبية لم يعد ذا أهمية في كتابات معظم كتاب

عصرنا، فالحدود بينهما تتغير باستمرار والأنواع تخلط أو تمزج والقديم يتحرك أو يحور .. إلى حد صار معها المفهوم نفسه موضع شك"¹، بل إن ما يمكن ملاحظته في راهن الشعرية المعاصرة أن المسألة لم تقتصر على تجاوز نظام الأجناس الأدبية" بل تعدت ذلك إلى توليد أنواع جديدة احتفظ بعضها صراحة بما يرث من الجنس المنقول عنه مثل قصيدة النثر بينما تسمى بعضها بأسماء جديدة تحاول محو سلاله الآثار المكتوبة أو تاريخها النوعي، مثل (النص) أو (الكتابة) كتوليد لنوع جديد يتنكر لأصوله أو يغييها كمزايا فنية داخل أبنيته².

وإذا كان من الممكن اعتبار هذا التحول حدثا فنيا جديدا لكثير من الفنون الأدبية المعاصرة، فإن علاقة الشعر بالسرد لا تعد جديدة إلا من زاوية طبيعة التوظيف الفني ودرجته، فالثابت في علاقة الشعر بالسرد أن هذه العلاقة موجودة منذ أن تشكل الشعر، وأن "دخول السرد في تكوين الشعرية ظاهرة شائعة في المدونة الشعرية قديمها وحديثها، وهي ثابتة أيضا في أشعار الأمم الأخرى، وهو الوضع الذي يؤكد قدم التضافر الفني بين الشعر والسرد"³.

يعكس هذا التضافر الفني بين الشعر والسرد قابليتها للتفاعل والحوار، فإذا كان الشعر نمطا من الكلام الفني المخصوص، فهو لا يتعارض مبدئيا مع احتضان أي نمط من الخطاب. وفي المقابل فإن السرد قابل للاستئناس في أشكال التعبير الفنية اللغوية منها وغير اللغوية، مثلما هو قابل للاستئناس في أشكال التعبير غير الفنية"⁴، ويعنى ذلك

أنه إذا كان لكل نوع حدوده الفنية، فإن هذه الحدود لا تمنع قابلية النوع على الانفتاح والاندماج مع الأجناس الفنية الأخرى، لاسيما وأن النص لم يعد ينزع إلى التجنيس فحدوده تداخلت وأصبحت مزيجاً معقداً من العناصر الفنية المتداخلة.

والملاحظ في الشعرية العربية القديمة أن العناصر السردية ظلت ذات حضور بارز في القصيدة الشعرية، فالتأمل في مدونة الشعر العربي يستطيع أن يلاحظ أشكالاً متعددة للتوظيف السردى في شتى الأغراض والموضوعات الشعرية القديمة، "فالسرد قد يستدعى في سياق الفخر والإشادة بقيم الفروسية والشجاعة والبطولة مثلما هو الشأن في معلقة عنتر العبسي على سبيل المثال، وقد يرتبط بغرض الغزل وما يتصل به من مغامرات عاطفية على غرار ما في معلقة امرئ القيس ورائية المنخل الإشكري وبعض قصائد عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة. وقد يتعلق بالاستطراد السردى وغير ذلك من السياقات مثل وصف الصيد في الطرديات وتصوير بعض ما يدور في مجالس الشراب والغناء في خمریات أبي نواس"⁵، وكان هذا التوظيف الفني للسرد يخضع لمنطق القصيدة العربية القديمة، فليس السرد سوى مكون أساس من مكونات القصيدة الشعرية وعنصر من عناصر سماتها الغنائية التي عرفت بها.

وإذا كان الشعر العربي القديم عرف كثيراً من السمات الفنية السردية، فإن النقد العربي القديم لم يغفل الإشارة إلى هذه الصلة القائمة بين الشعر والسرد. يورد ابن طباطبا في كتابه "عيار الشعر" ملمحاً لهذه

الصلة فيقول : "وعلة الشاعر إذا اضطر إلى اقتناص خبر في شعره دبّره تدبيراً يسلسل له معه القول و يطرد فيه المعنى فيبني شعره على وزن يحتمل إن يحشي بما يحتاج إلى اقتناصه بزيادة من الكلام يخلط به أو نقص منه وتكون الزيادة والنقصان مزيدة غير خارجة عن جنس ما يقتضيه، بل تكون مؤيدة له وزائدة في رونقه وحسنه"⁶.

وفي تعليقه على هذا القول، يشير صلاح فضل أن رؤية ابن طباطبا هذه، تؤكد معرفة السرد مبكراً فيقول "إن هذه أوضح إشارة في النقد والبلاغة العربية بالسرد الشعري"⁷ ولهذا يطرح صلاح فضل جملة من القضايا المتصلة بهذه الرؤية⁸ وأهمها :

- 1- بين الوزن وما يقتضيه من القص الشعري من صيغ وأشكال؛
- 2- الاهتمام بسرد النص بأكمله والعناية بدرجة تجانسه وتماسكه؛
- 3- الاهتمام باقتصاد الكلام المتمثل في تلاؤمه مع الشخصيات والمواقف وهو غير الإيجاز المطلق المعهود في البلاغة؛
- 4- مراعاة الصدق دون تفصيل واضح لطبيعة هذه الصدق، هل يقوم في علاقة الكلام بالقصة المسرودة فيكون صدقاً فنياً، أم بالواقع الذي ترويه فيكون من قبل الصدق التاريخي.

وإذا كانت الشعرية العربية القديمة قد عكست ملامح كثيرة ذات صلة بالسردية، فإن هذه السردية تحولت بفعل التغيرات الفنية المتعددة التي عرفها الشعر العربي المعاصر. فقد تغيرت حركة السرد في الرؤية

والتوظيف الشعري، فانتقلت من الاستعمالات العفوية إلى الإبداع الفني القادر على صهر عناصر السرد وإخضاعها إلى شروط التجربة الشعرية ومقتضياتها الفنية، فإذا كان استعمال السرد في شعر الرواد يستند على الحكي القائم على التقابل والتوازي والانقطاع، فإن السرد في شعر الحداثة أصبح سردا مشهديا يستوعب الحدث بأدق جزئياته وتفصيله⁹. ومن هنا صار لانفتاح النص الشعري العربي إمكانات متعددة للتقاطع مع فنون العصر وأجناسها الفنية والأدبية المختلفة.

لقد أتاح الإبداع الشعري الحديث للشاعر حرية كبيرة في تشكيل اللغة والإيقاع وسمح له بتطويع إمكانيات الشعر لاستيعاب الأشكال الفنية الأخرى. وكان هذا التحول تجاوزا للمعايير الإيقاعية التي عرفتها القصيدة الشعرية القديمة وانفتاحا على الربط المقترحات الفنية الجديدة التي ترفد النص الشعري الحديث وتغنيه على مستوى البنيات الشكلية والدلالية، من هنا وجد الخطاب الشعري الحديث في طاقة السرد ومرونته الفنية كثيرا من الإمكانيات في احتواء القصص وإجراءاته وآلياته من أجل تقوية بناء القصيدة الشعرية وتعزيز مستوياتها المتعددة إيقاعا وتركيبا ودلالة، فانتقلت القصيدة الشعرية من الطابع الغنائي إلى الرؤية الدرامية، وهي رؤية لم تكن بارزة في الشعر العربي القديم لأن الدرامية "ليست انفعالا عابرا وسريعا ... بل هي توتر يكون سببا في إفراز غنى وامتلأ صوتي ... وتعبيري على مستوى الشعور والوعي، كما تفرز الدرامية على مستوى الحدث وأفعال السرد سلسلة من المواقف

والحالات وتعدد ضماير السرد وتعيينات الزمان والمكان¹⁰ ولهذا السبب عدّ عز الدين إسماعيل ظاهرة السرد في الشعر ضمن أساليب التعبير الدرامي¹¹، وهي الأساليب الفنية التي تكون قادرة على التعبير عن عمق التجربة الفنية وثنائها.

إن هذا التضافر الفني بين الشعر والسرد لا يمكن فصله عن التحولات الكبرى التي شهدتها الثقافة المعاصرة، فقد حققت الفنون ضمن هذا المناخ الجديد "قفزة نوعية على صعيد تحديث أساليب العمل وثقافات التشكيل النوعي لدى الأجناس وبدا النص الشعري في ذاك وكأنه مكان فني لتقاطع كثير من العناصر والأجناس والخطابات كافة، إذ تغذّت هذه الأساليب بقوى جديدة مرّنت عناصرها وخصّبت مكوناتها ودفعتها إلى اكتشاف مناطق إدهاش ومساحات فتنة طورت كثيرا من الإمكانيات الحضارية والعصرية للجنس الأدبي وقادته إلى منعطفات قرائية كشفت عن فهم جديد للنص الإبداعي ولعلاقته بالمبدع من جهة والقارئ من جهة أخرى¹².

وقد أثمر هذا الوضع عن ظهور إمكانيات متعددة على مستوى الإبداع الشعري الحديث في الاستفادة من الفنون والخطابات والأشكال الإبداعية المختلفة. فتعددت بنيات النص الشعري وتنوعت طريقة صياغته وتشكيله، مما سمح للتجربة الشعرية من تحقيق الثراء والتنوع الفني.

والجدير بالذكر، أن لغة الشعر الحديث أسهمت بما تحمله من تبدلات في الإيقاع والمنظور والرؤى والاستعانة بالرموز والأقنعة الفنية والأحداث المختلفة في الاقتراب من لغة النثر، فتمكن الشاعر في سياق هذا التحول الفني الجديد من الانتباه إلى عناصر تكوينية، لم تكن ذات أهمية في التجربة الشعرية القديمة "فقد أصبحت الحكاية أو السرد جزءاً من منظور القارئ نفسه بما أن الحياة ذات صلة بالسرد"¹³. ومن هنا يمكن القول إن عودة الشعر الحديث للمادة التاريخية والتراثية عزز لدي الشاعر العربي القدرة على تسريد الشعر خاصة عندما يتعلق الأمر باستدعاء الوقائع التاريخية والشخصيات والأساطير والأقنعة.

وهكذا أصبح انفتاح الشعر على النثر هو جزء من انفتاحه على الفنون الأخرى، هذا بالإضافة إلى أن "فنون القول الأدبي على تباينها في الخصائص وطبيعة البناء لم تعد غدراناً معزولة عن بعضها البعض، لقد بدأت كتلة الياس الفاصلة بين هذه الفنون بالتآكل أو التخفف من بعض مزاياها العازلة حتى اتسعت نقاط التماس والتفاعل بينها إلى حد كبير"¹⁴.

وضمن هذه الرؤية نفسها، يشير حاتم الصكر أن هناك جوانب بنائية ذات صلة بتحقيق هوية القصيدة السردية، وأهمها :

- 1- تقريب فضاء اللغة من الواقع اليومي ونثره المحكي ؛
- 2- تكثيف حجم القصيدة ؛

3- إنّ تمدد الجملة الشعرية في النص الشعري الحديث جعلها قادرة على احتضان عناصر السرد وإخضاعها وإدماجها في أفق النص وبناءه العام ؛

4- منظور القراءة والتلقي: شكل انكفاء الشعر على السرد اختراقاً لأنماط التلقي التقليدي للشعر العربي، مما يعني أن القارئ لابد له في هذا الوضع الفني من تفعيل ذاكرته الشعرية والنثرية في قراءة القصيدة السردية وتلقيها، "ولعل أهم الصدمات التي وجهها القصيدة الحديثة لمنظور قراءة القارئ وأفق توقعه أو تقبله، هو إرسال النثر بلغته وصوره وتعييناته المكانية والرمانية، فالسرد يحرر الشعر ليس من هيمنة الرؤية الغنائية فحسب، بل من هيمنة الشعر الخالص بتجريدته وفضائيته"¹⁵.

إن ما يمكن تسجيله في سياق هذا التضافر الفني بين الشعر والسرد أن الشعر يعمل على مقاومة السرد، فيما هو يستدعيه إلى رحاه، إنه يجتهد في المحافظة على هويته الفنية وطريقته اللغوية الخاصة في الإفصاح عن التجربة الفنية والإنسانية، ويعني ذلك أن اشتغال الشعر على تقنيات أو عناصر سردية هو فقط شكل من التفاعل الذي يبقى على الحدود الثابتة والجوهرية للشعر، فمهما كثفت القصيدة من طاقة السرد، تظل فناً شعرياً خالصاً، غير أن هذه الغاية لا تتحقق للشعر إلا عبر ما يمكن أن يحقه من مرونة فنية وقابلية على الانفتاح الإيجابي على الخطابات والفنون من جهة وعلى قدرة الشاعر في تطويع تجربته الفنية تطويعاً

محكما من جهة ثانية، إن هذا يعني أن الطاقة الفنية للشعر هي وحدها القادرة على صهر العناصر الطارئة على الشعر وتحويلها إلى وسيلة بانية لفاعلية اللغة الشعرية.

من هنا كانت عملية تسريد الشعر في النص الشعري العربي الحديث تتفاوت تفاوتاً واضحة بين شاعر وآخر، بل بين تجربة شعرية وأخرى حتى على مستوى الشاعر الواحد.

الهوامش

1. رينيه ويلك، مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1987، ص 376.
2. ينظر: حاتم الصكر، مرايا نرسيس الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط 01، ص 19.
3. فتحي النصري، السرد في الشعر العربي الحديث، في شعرية القصيدة العربية، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، ط 01، 2006، ص 09.
4. المرجع السابق، ص 61.
5. فتحي النصري، السرد في الشعر العربي الحديث، ص 63.
6. ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، مطبعة التقدم، مصر، د.ط، د.ت، ص 84.

7. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص281.
8. المرجع السابق، ص281.
9. ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص36.
10. حاتم الصكر، مرايا فرنسيس، ص30-31.
11. ينظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ط3، 03، 1981، ص278.
12. محمد صابر عبيدة، المغامرة القصصية وسردنة الفنون، ضمن تداخل الأجناس الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، جامعة اليرموك، الأردن، عالم الكتب الحديث، م02، ط01، 2009، ص397-398.
13. بول ريكور، الحياة بحثاً عن السرد، ترجمة: سعيد الغانمي، مجلة نزوى، ع10، 1997، ص21.
14. علي جعفر العلاق، الدلالة المرئية، قراءات في شعرية القصيدة الحديثة، دار الشروق، الأردن، ط01، 2002، ص151.
15. المرجع السابق، ص39.